العولمة والفكر الإسلامي المعاصر

تحليل ورؤية

م. م. عقيل رزاق نعمان
جامعة بغداد – كلية التربية / ابن رشد

مع بدايات النهوض الإسلامي وجد المسلمون أنفسهم أمام العديد من الأطروحات الكبرى التي لها هيمنتها على الثقافة العالمية والتي تجعلهم في موقف رد فعل كثيراً ما يتم بالسلبية تجاهها لكونها منتجاً غربياً اقترن في الوعي الإسلامي بالكفر والاستعمار والهيمنة على مقدراته.

والعولمة احد مجسدات هذا الموقف ، إذ نجد مواقف بدرجة من التطرف تخرج العولمة عن كونها انطلاقة طبيعية لجملة من المتغيرات التي شهدها العالم منذ انهيار الاتحاد السوفيتي والذي فرض واقعا جديدا في العالم متمثل بسيطرة الرؤية الليبرالية للحياة تتزعمها الولايات المتحدة والتي وجدت في الثورة التكنولوجية والعلمية دافعاً قوياً لها على الساحة العالمية (١)، ومن ثم هي ((أمر طبيعي يعبر عن محصلة التفاعل الاقتصادي والثقافي بين مفردات المنظومة العالمية))(٢)، إلى كونها جولة استكبارية جديدة أنتجها العقل الأمريكي وسوّقها عن طريق الفلاسفة من اجل التحكم بالعالم(٣)، و ((تعبير عن المركزية الأوربية وعن العنصرية الدينية فيها والرغبة في القوة والسيطرة على مقدرات العامة))(٤)بل نجد إن بعضهم جعلها وليدة ((تعليم إبليس عليه اللعنة حينما خدع آدم (عليه السلام) بتسميته الشهيرة لشجرة منعهُ الله إن يقربها [**شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى**] طه / ١٢٠، وكأن ليس هناك يوم البعث والجزاء والحساب والجنة والنار وتفرعت منها دار الكفر والاستكبار والعلو))(٥)هذا فضلاً عن مواقف بعض المفكرين الماركسيين الذين جعلوها وجهاً ثانياً للامبريالية باعتبارها نمطاً آخر للرأسمالية(٦).

فهذهِ المواقف تختزل هذهِ الظاهرة الكبرى في مؤامرة غربية أمريكية ، متجاهلة أسبابها وحقيقتها التي هي نتيجة لمسار تاريخي بدأ مع عصر التقنية(٧)والنهضة ووصل إلى قمته مع انتهاء مرحلة الحرب الباردة وفشل الايدولوجيات الشمولية وتطلع الشعوب إلى الحرية والتخلص من هيمنة الدولة، ولخطابية وأيدلوجية هذهِ المواقف نجدها تنتشر في وسائل الإعلام والمؤتمرات الموجهة نحو التعبئة والجمهور العام ، ومثل هذا التعامل نجدهُ مقارباً لموقف بعض الفقهاء في القرن الثاني الهجري من البحث الكلامي ومواجهه التساؤلات والتحديات بانها زندقة وكفر يجب

التعامل معه بالعنف والقوة لا بالفكر والتحليل . والذي لو قدر له الهيمنة لما وجدنا هذا الكم الكبير من الإنتاج الفكري للمسلمين والذي أسس الفكر الإسلامي بصورته المعاصرة.

ولذلك فان البحث لن تكون انطلاقتهُ من هذه الرؤية-كونها مؤامرة استكبارية- وان كان في الوقت نفسه يجعلها احد الفرضيات المحتملة لظاهرة العولمة ، بل سيحاول إن يقاربها ماهوياً ووجودياً وإخضاعها لبعض الثوابت الإسلامية والنصوص القرآنية في تحديد الموقف اتجاهها.

الماهية والتطور الحضاري

عند ملاحظة المحاولات التعريفية لمقولة العولمة نجدها على قدر كبير من التشتت الذي عزاه بعض الباحثين إلى ((تأثر التعريفات المختلفة لها بالمواقف الايدولوجية من العولمة))(٨)مما يجعل عملية الحصول على تعريف موحد أمرا شاقا، ومن ثم على كل باحث يريد الوصول إلى موقف مستقل إن يسعى بنفسه إلى تحديد أو تبني مفهوم خاص به ، ومن هنا سيبدأ البحث في تحديدهِ لمقولة العولمة بالانطلاق من الجذر اللغوي في اللغة الإنكليزية الذي وضع مصطلح العولمة مقابلاً له.

إن أقدم الموسوعات التي ورد مصطلح العولمة ترجمة لأحد موادها هي موسوعة لالاند فكانت مقابلاً لـ(Universalisation) (٩)المأخوذ من الجذر (Universe) الذي يعني الكون بما يحويه من كواكب ونجوم(١٠)ولذلك نجد جميع المشتقات من هذهِ المادة تدور حول الكلية والشمولية ، ومنها اشتق Universalismالعالمية الذي يعني انه لا يمكن للإفراد إن يكونوا منعزلين في العالم مقابل الذرية التي تعتبر العالم مجموعة أجزاء منعزلة(١١).

ولكن المعروف بعد تحول العولمة إلى ظاهرة سياسية – فكرية عالمية،إنها أصبحت مقابل (Globalization) التي مشتقة من (Global) (١٢) ،أي الكرة الأرضية ولذلك نجد البعض يترجمها بالكوكبة نسبةً إلى كوكب الأرض وبعض آخر بالكونية(١٣).

إذن المعنى المركزي المقابل مصطلح العولمة هو الشمول والتعميم والنظر إلى الأجزاء كوحدة واحدة مترابطة ، وهذا ما سنجد له حضوره في المعنى الاصطلاحي الذي تداولته الدوائر السياسية والعلمية في الغرب ، ففي تعريف لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي نجد إن العولمة هي تعبير عن ((اتساع وعمق التدفقات الدولية في مجالات التجارة والمعلومات في سوق عالمية واحدة متكاملة))(١٤). وعرفها ستروب تاليورت نائب وزير الخارجية الأمريكية بأنها ((نظام عالمي جديد يقوم على العقل الالكتروني والثورة المعلوماتية القائمة على الإبداع التقني غير المحدود دون اعتبار للأنظمة والحضارات والثقافات والقيم والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم))(١٥)وفي وصف لها من قبل الرئيس الأمريكي بل كلينتون أكد إن ((العولمة لا تتخطى مجرد

المجال الاقتصادي ، إذ ينبغي أن يكون هدفنا استقطاب العالم نحو الحرية والديمقراطية والسلم ومعارضة من يرغبون في تمزيق أوصاله))(١٦)وعرفها جون توملنسون رئيس مركز أبحاث الاتصالات والثقافة العالمية بجامعة ترنت البريطانية بأنها((الفعاليات المضطردة المتنامية التي تخص الاتصالات الاندماجية المعقدة بين المجتمعات والثقافات والمؤسسات والإفراد على النطاق العالمي))(١٧).

من خلال هذه النماذج الغربية لمفهوم العولمة، نجد أنها تتمحور حول رؤية تنظر إلى العالم كوحدة واحدة يجب إن تزال كل القيود إمام التبادل بين أجزاءه على المستوى الاقتصادي والثقافي ، فهي رؤية تدعو إلى مبدأ الرأسمالية الخالد دعهُ يعمل دعهُ يمر ولكن بأطروحة مؤطرة بظروف سياسية وثقافية جديدة وهذه الرؤية من غير الصحيح ربطها ماهوياً بالرأسمالية، وان كان الواقع الذي اقرها هو الانجاز الرأسمالي على مستوى التكنولوجيا والاتصالات لذلك يسأل احد الباحثين حول الأخطاء والتعسف الذي يجري على بلدان الجنوب ((هل تتحملها فعلاً العولمة الاقتصادية أم تتحملها هيمنة الامبريالية بعد سقوط ضدها أم الاثنين معاً؟ وما هو المهم أيضا التمييز بين ما يحصل اليوم من مشاكل وتناقضات في ظل الهيمنة الامبريالية وبين ما كان ممكناً إن يحدث في ظل هيمنة الضد لو كان هو الناجي الحقيقي من الصراع الإمبريالي – الشمولي هو الاتحاد السوفيتي))(١٨) وهنا يتصدى الباحث نفسه للإجابة بان ((الموثوق به وبحكم حركة التاريخ وتجارب الهيمنة الواحدة على العالم إن لم يكن أسوأ فانه سيكون مشابهاً لما يحصل الآن فعلاً))(١٩) والى رأي مقارب ذهب باحث آخر فيرى ((إن انفراد الرأسمالية العالمية المعاصرة بالعولمة اليوم ليس دالاً بالضرورة على زواج كاثوليكي بينهما بقدر ما يؤشر أيضا بعضاً من حالة الترمل التي وجدت العولمة نفسها فيها بعد وفاة دولة ومعسكر علاقات الإنتاج الاشتراكية))(٢٠) ،بل هناك فكرة جريئة جداً ترى في العولمة حقيقة إسلامية لكونها تنتمي إلى الزمن الأخلاقي الإسلامي وان كان تنتمي للغرب في زمنها التاريخي(٢١) .

إن الارتباط الذهني بين العولمة والعالم الرأسمالي نتج من الاقتران الخارجي بينهما وليس نتيجة كونه مقوماً لماهيتها، هو من التعقيد والكثافة والغنى ما يجعل اختزاله وتبسيطه في بعد واحد من المزالق التي يمكن إن تجر علينا أخطاء تاريخية تضاف إلى أخطائنا السابقة والتي أوصلت المسلمين إلى الحالة المتخلفة التي هم عليها الآن.

وفي الحقيقة إن الرؤية المفهومية الأكثر قرباً لظاهرة العولمة في تطورها التاريخي كونها ((جملة عمليات تاريخية متداخلة تتجسد في تحريك المعلومات والأفكار والأموال والأشياء وحتى الأشخاص بصورة لا سابقة لها من السهولة والانية والشمولية والديمومة ،إنها قفزة حضارية تتمثل

في تعميم التبادلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على نحو يجعل العالم واحداً أكثر من أي وقت مضى))[٢٢].

إن العولمة كواقع هي تتويج لعدة مراحل تجاوزتها الحضارة الإنسانية في وجهها الغربي العالمي ومن ثم فان ولادتها كانت عملية طبيعية ولا يمكن القضاء عليها ،كما لم يمكن القضاء على كل التطورات السابقة التي غيرت وجه الحضارة بالرغم من كون بداياتها كانت لها أثار سلبية كبيرة.

مما يعني إن أي موقف إيديولوجي مسبق، يُطرح ضمن قناعات جامدة سيكتب له الفشل،لان ((القراءة الايدولوجية هي قراءة وحيدة الجانب تقوم على التبسيط والاختزال،وذلك حيث تقرأ العولمة بتعابير التمركز والهيمنة والسوق والسلعة والاستعمار والرأسمالية أو الاختراق والاغتصاب))[٢٣]، وهو يعني تجاهل كونها واقعا أفرزته حركه التطور في العالم المعاصر في جوانبه المختلفة .

إن هذه المواقف الاختزالية كانت احد أسباب معوقات التطور في المجتمع والفكر الإسلامي قد ولدت لنا تيارات تكفيرية جعلت من صورة المسلم سلبية عند قطاع كبير من المجتمع الإسلامي فضلاً عن المجتمع الغربي ، لذلك لابد للباحث المسلم وهو يواجه هذا الحدث التاريخي الكبير إن ينطلق من الواقع الذي يعيشهُ ويعرضه على منظومتهِ العقائدية في ثوابتها ومتحركاتها ليصل إلى الموقف النهائي في ضوء ذلك، مقدماً الأسس المنطقية لهذا الموقف ، مما يجعله موقفاً واعياً وفاعلاً في حياة المسلم ، ومثل هذا الموقف لا تفرضه الضرورة العلمية والعقائدية وحسب، بل لكون العولمة ((ظاهرة موضوعية وانجاز علمي لا يمكن إلا التعايش معها والاستفادة منها وفق برنامج شامل والاستفادة منها ومن آلياتها لخدمة أهداف إنسانية أكثر تقدماً وعدلاً وإزالة فرص وعواقب تسخيرها لتهميش البلدان النامية))[٢٤]التي تمثل البلدان الإسلامية جزءاً أساسيا منها.

العولمة مقاربة وجودية

إن أهم الأسس للموقف العلمي الواقعي هو انطلاقة من تحليل الواقع وحيثيات القضية التي يواجهها الإنسان وتتطلب منه موقفاً محدداً ضمن إطار استقلاليته وخصوصيتها،ومن هنا وبعد إن وجدنا العولمة كظاهرة في واقعها الماهوي لها جانب كبير من الحيادية باعتبارها وصف لطبيعة العلاقات في القرية الكونية بعد الثورات الحضارية التي شهدها القرن العشرين ،فان الموقف منها سيكون نابعاً من مجسدات هذهِ الظاهرة وعلى مدى الحاضر والمستقبل المنظور، وليس اتجاه

هذا الواقع في حاضره فقط ،الذي لن يغير منه الموقف الإيديولوجي شيئا إذا رفض ضمن هذا الإطار.

وبالرغم من كون العولمة تجسدت في العديد من الإبعاد إلا إن بعديها الاقتصادي والثقافي يعتبران المحور لكل أثارها المترتبة على المجتمعات؛ لذلك سينطلق الموقف الإسلامي من هذه الظاهرة باعتبار هذين الأثرين مما يطلب التحديد الدقيق والموضوعي لهما.

بالنسبة إلى البعد الأول فقد قدم الاقتصاديون العديد من المؤشرات التي تعكس واقع الاقتصاد في ظل العولمة واثر ذلك على البلاد الإسلامية باعتبارها بلدان نامية ،وهذا الأثر ليس أثرا مؤقتاً في ظل واقع هذه البلدان التي تعاني من اختلالات هيكلية في الاقتصاد لا يمكن تجاوزها في المستقبل المنظور من أهمها سيطرة القطاعات الاستخراجية والزراعية في ظل صناعة ضعيفة لا يمكن إن تقف أمام الصناعة في البلدان المتقدمة ، وعلى سبيل المثال إن الشركات متعددة الجنسية تسيطر على ٨٠ % من إنتاج العالم وهي تعود إلى العالم المتقدم بالإضافة إلى احتكارها للصناعة المتقدمة التي لا تستطيع الدول الإسلامية منافستها وكذلك الأثر في القطاع الزراعي والتجاري[٢٥].

هذه أهم المؤشرات العامة للمركز الاقتصادي الذي ستكون عليه الدولة الإسلامية مع واقع العولمة الاقتصادية ، ولكن في الوقت نفسه نجد بعض الاقتصاديين يؤكدون إن هذا الواقع ليس بسبب ظاهرة العولمة بل بسبب ما وصفه احد كبار الاقتصاديين بالنفاق من الدول الغربية إذ إنها دفعت البلدان الفقيرة إلى إلغاء الحواجز الكمر كية ولكنها أبقت في الوقت نفسه على حواجزها ومنعت البلدان النامية من تصدير منتجاتها التي تتمتع قيمتها بميزة نسبية بالإضافة إلى تقييد حصصها من استيراد هذه السلع[٢٦]، ويرى إن مثل هذا النفاق والسيطرة هو السبب في القضاء على الكثير من ايجابيات العولمة وهذا ما يؤكد إننا أمام ظاهرة تعتمد في ايجابيتها وسلبيتها على القوى المتحكمة فيها فليست ((العولمة بحد ذاتها جيدة ولا رديئة ولكنها تملك القوة على القيام بخير عميم، ففي بلدان شرق آسيا التي احتضنت العولمة وفق شروطها وخطاها كانت مصدر نفع عظيم على الرغم من نكسة أزمة عام ١٩٩٧ ولكنها في معظم دول العالم اقرب ما تكون إلى كارثة شديدة))[٢٧].

هذا ما يتعلق بالمؤشر والواقع الاقتصادي في ظل العولمة بالنسبة للدول والمجتمعات الإسلامية وأما ما يتعلق بالجانب الثقافي الذي يمكن اعتباره المكون الروحي للمجتمع بعد إن كان الجانب الاقتصادي المكون المادي له ، لان الثقافة التي يجري الكلام عنها في ظل العولمة هي ((الثقافة بمعناها الأعم والاشمل هي صناعة الحياة وتشكيل العالم))[٢٨]، وليس مجرد الفكر النظري

الذي يحكم رؤية الإنسان للحياة ،و على وفق هذا المفهوم الشامل نجد إن الواقع العولمي للثقافة تركز على العمل لتكوين رؤية جديدة لهذه الصناعة والتشكيل ، وهذا الواقع لا يمكن النظر إليه منفصلاً عن البعد الاقتصادي ، لان ((العولمة في مفهومها الاقتصادي والإعلامي تقوم على سياسة الأسواق المفتوحة وعالمية السلع والمنتجات والخدمات وهذه تحتاج إلى بيئة ثقافية مشتركة تحملت وسائل الإعلام عبء تأسيسها))[٢٩].

ومن هنا نجد إن الواقع الثقافي في ظل العولمة ذو مؤشرات تعتمد التكنولوجيا بالدرجة الأساس إذ ((تشير الإحصائيات إلى أطلاق ما يقارب عن (٨٠٠٠) قمرا صناعيا يحتوي كل منه على (١٦)قناة فضائية وقد أطلق في منتصف التسعينات حوالي ٢٠ قمرا صناعيا وما تزال في تزايد مستمر))[٣٠]هذا من ناحية الوسائل ، وأما من ناحية المضمون فان المعلومات تشهد ((تدفقاً معلوماتياً ذات اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب ، مثلا وكالة الصحافة المشتركة (الاسوشيتدبرس) والوكالة المتحدة (ليونايتدبرس) ورويتر وفرانس بريس التي تثبت نسبة ٨٠% من المعلومات والأخبار مقابل وكالات العالم النامي التي تثبت بمقدار ٢٠ %))[٣١] وعندما لاحظت وشعرت الدول الأوربية بخطر سيطرة الثقافة واللغة الانكلو – سكسونية دخلت في مفاوضات ((بهدف إقرار نوع من التوازن في البرامج التي تبثها عبر الأقمار الصناعية بحيث يكون هناك حضور مناسب للغات الأوربية الرئيسة ومن ثم للثقافات والخصوصيات التي تحملها هذه اللغات))[٣٢].

إن واقع الثقافة التي أفرزتها ثورة الاتصالات وهيمنة الثقافة الغربية على وسائل الإعلام أدى إلى ظهور ظاهرة ((ثقافة ما بعد المكتوب وقد ظهرت هذه الثقافة بعد احتضار الثقافة المكتوبة ، إنها ثقافة الصورة ، ثقافة لها من القدرة والتأثير مثلما هو الحال في العولمة الاقتصادية التي استطاعت تحطيم الحواجز الجغرافية الكمر كية ، كذلك الحال بالنسبة إلى ثقافة الصورة فإنها استطاعت إن تحطم الحواجز اللغوية في المجتمعات الإنسانية))[٣٣].

وإذا كانت ثقافة ما بعد المكتوب أنتجت لنا صورة الجيل المسلم المدبلج بالصورة الغربية فان الثقافة المكتوبة أنتجت لنا المثقف الهجين والمثقف المنفي فقد ((تضاعفت الأفكار الهجينة ، كما تضاعفت صورة المثقف المنفي ، لقد أصبح المثقف الهجين والمنفي شكلاً جديداً ولكنه شكل سائد الآن ، انه المثقف الطبيعي ، يكفي إن نشير إلى سلمان رشدي وادورد سعيد ، فهو مستشرق متغرب ، فادوارد سعيد وسلمان رشدي كلاهما مثقف شرقي يعيش في الغرب ، أما سعيد فيبدوا أكثر تمثلاً بالشرق في حين رشدي يتماهى مع الغرب))[٣٤].

إن هجانه الثقافة والتماهي الغربي أصبحتا ظاهرة ليس عند المثقف العربي في بلاد الغرب، بل انه الواقع السائد في ثقافتنا المعاصرة ،((فالعالِم هو الذي يعلم التراث الغربي والعلم هو المعلومات الوافدة من الغرب ، بل ولا يستطيع الإنسان إن يكون مجدداً ألا إذا تعلم الوسائل الغربية ، أصبح العلم نقلاً والعالم مترجماً والمفكر عارضاً لبضاعة الغير ووجدت طبقة هشة من الأفكار والمذاهب والنظريات طائرة فوق الواقع لا هي مستمدة من الموروث القديم ولاهي نابعة من الواقع المباشر))[٣٥].

وبالإضافة إلى هذا الواقع الهجين في ثقافتنا المعاصرة ،فان القوى الفاعلة في الغرب تعمل على ترسيخ هذا الواقع وتطويره إلى مرحلة النقاء من الثقافة الشرقية والإسلامية باعتبارها ثقافة ((مكبلة بالقيود وذات توجهات دينية لا تلبي احتياجات العصر))[٣٦] وذلك من خلال إشاعة الثقافة الأمريكية والغربية بين الشعوب الإسلامية في محاولة تهدف إلى فرض القيم الأمريكية والنموذج الغربي على الشعوب كافه بوصفه أنموذجا يمثل الكونية بأكملها بحيث يحل محل الحضارات في العالم ومنها الإسلامية ويشكل نوعاً جديداً من الايدولوجية يجري تداوله من جميع الشعوب ويعد صالحاً لها.

ويرى بعض الباحثين هذا المشروع في اختزال العولمة بالثقافة الغربية لم يقتصر على الوسائل الإعلامية بل وجدت مؤسسات تعمل على إيجاد الآليات الفلسفية والنظرية للسير بهذا المشروع إلى نهايته من خلال اعتماد ((فلسفة الفوضى كمنطلق فكري للمتغيرات الجارية في الغرب مع العقود للأخيرة للقرن العشرين ، فمنذ عقدين وفلسفة الفوضى والخطية واللاخطية تفصح عن حقيقة الاستفراد الأمريكي – التوراتي بالعالم))[٣٧].

الموقف الإسلامي: قراءة في المحدد

في الحقيقة إن ما تقدم من التمييز بين العولمة ماهية والعولمة وجوداً كان تمهيدا من جهة واحترازاً من جهة أخرى ، تمهيدا لتحديد الموقف الإسلامي، واحترازاً عن الوقوع في الانغلاق الإيديولوجي والأخير مهم جداً في تأسيس الموقف، لان الايدولوجيا انتهى بها الأمر في العصر الحديث إلى كونها موقفا جامدا ((لا يهمها في النهاية تغيير الواقع بقدر ما يهمها غسل الأدمغة للسيطرة على الإتباع وذلك يتم على حساب المعرفة بالواقع ويترجم عجزاً عن تشخيصه ولذلك فالواقع يفاجئ أكثر ما يفاجئ أهل الادلوجات الغرقى في طوباويتهم المفتونين بحسن شعاراتهم))[٣٨].

وهذه الحقيقة أصبحت لها واقعيتها الكبيرة وخاصة بعد إن شهد العالم الأيدلوجيات الشمولية، التي انطلقت من شعاراتها وليس من الواقع كالتجربة الماركسية اللينينية لتسقط بأيدي أبنائها بعد كل الجهود والثروات التي أنفقت عليها.

ومن هنا وفي مجال الفكر الإسلامي يجب على الباحث إن يميز بين ضرورة الانطلاق من ثوابته القرآنية والإسلامية وبين الانزلاق إلى خطر الشعارات والمواقف المسبقة، وهذا ما يفرض عليه إن ينطلق من الواقع الذي تقدم ، ثم يعرضه على الثابت الإسلامي وهذا ما فعله أكثر من مفكر إسلامي والذي ولد له رؤية بعيدة كل البعد عن الرؤى الاختزالية للعولمة في بعد المؤامرة التي تم تقديمها في صدر هذا البحث.

إن المتابع للمواقف اتجاه العولمة يجدها تحكمها مواقف وعناوين القبول أو الرفض ومن ثم إما ((التعامل معها دون قلق وإما اعتبارها عملية غسل حقيقية للأدمغة تجري على مستوى العالم مع وجود نظرة أخرى تنظر إلى العولمة مرحلة موت الرأسمالية))(٣٩).

ومن ثمّ السؤال المطروح على الفكر الإسلامي سيكون هل نقبل العولمة أو نرفضها؟

ومثل هذا الطرح الذي يجعل من العولمة حالة مطلقة تتردد بين الرفض والقبول يمكن اعتباره غير منسجم مع ماهية العولمة وكونها حقيقة واقعة أشبه ما تكون بواقع تكويني يكون من العقم التعامل معه بهذا المنطلق ، وهو في الحقيقة اعتراف، بل استسلام لعملية مصادرة مظهر حضاري وحركة كونية طبيعية أفرزتها حضارة الإنسان .

وهذه الحقيقة أكدها أكثر من باحث إسلامي، فقد ذكر بعض الفقهاء- مع إبرازه لوجه العولمة كقوة هيمنة لبعض القوى الرأسمالية- إن لها وجها آخر باعتبارها ((نزعة إنسانية نحو تبادل المعونة ونمو التكامل المعرفي ونحو تقديم الإنسان ، وبهذا المعنى فان العولمة باعتبارها هدفاً إنسانيا لاغناء الأخر والتكامل معه ولإعطائه فرصة الازدهار هي فكر أصيل وذخيرة أصيلة للإيمان الديني))(٤٠).

في حين أكد باحث ومؤرخ إسلامي أخر ((انه لا ينبغي أن تكون العولمة مجالاً من مجالات التحدي فعقيدتنا ، نحن المسلمون تقوم على عالمية الإسلام ، فنحن عالميون قبل إن ينشأ مفهوم العولمة ويفترض إن يكون فتح الأفاق والحدود فرصة للإسلام الذي يهدف إلى إن يكون دين البشرية جمعاء ولكن الإسلام ليس ديناً وعقيدة فحسب ، فهو أيضا مجتمع تجربة بشرية حاضرة وتاريخ بشري))(٤١)، وهذه الرؤية ليست مجرد طموح نظري لبعض الباحثين بل وجدت لها التطبيق النظري في الغرب نفسه فقد تم ممارسة العولمة في الضغط على القوة المهيمنة من اجل التخلص من احد شرور الصراع القديم بينها ، إذ مارس الناشطون من اجل السلام ومن ((خلال اتصالات

الانترنيت ضغطاً تمخضت عنه إبرام معاهدة الألغام الدولية بالرغم من معارضة العديد من الحكومات القوية))[٤٢].

إذن لابد لنا في إن نستبدل الانطلاق من التساؤل عن القبول والرفض إلى الانطلاق من: ما العمل ؟ وما محدداته ؟.

فيما يتعلق بالرؤية الكلامية الإسلامية، فانه قبل تحديد العمل لابد لها إن تحدد ضوابطه ومبادئه ؛ لان تحديد المبادئ الفوقية للموقف الإسلامي في الأطروحات المعاصرة يجب إن ينطلق من واقع هذه الأطروحات والعولمة كما سبق ، لها واقعها الماهوي الحضاري ولها واقعها السياسي الوجودي :

الأول :حيادي ونتيجة للمسار الحضاري للإنسانية.

الثاني : متحيز نتيجة لوجود قوى وجدت نفسها قادرة على التحكم بالعالم من خلال العولمة.

ولكل من هذين الواقعين نتائجه واستحقاقاته ، فالأول يتطلب الدخول إلى الساحة الإعلامية والثقافية العالمية بعد ان رفعت القيود عنها بصورة لا يمكن تلافيها إلا بالإكراه والضغط الذي ينافي روح الإسلام والقرآن وسيرة النبي والأئمة عليهم السلام ، وفي الوقت نفسه فان واجب الأمة الإسلامية قرآنياً هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ** }آل عمران /١١٠ {**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ** } الحج /٤١.

وإما بالنسبة للواقع الثاني ، الواقع المادي والاقتصادي للعولمة والذي أصبح بيد بعض القوى والشركات العالمية فان أهم استحقاقاته هو العمل على الرقي باقتصادنا وسياستنا بالدرجة التي تؤهلها أن تكون نداً أمام هذه القوى ، لان أي ضعف أو وهن إمامها ستجعل لها الكلمة العليا في إرادتنا ومقدراتنا الاقتصادية،ومن ثم سنجد أنفسنا أمام مخالفة لقاعدة عليا إسلامية تحكم علاقة الإسلام والمسلم بالكافر بمعناه الأعم وهي قاعدة نفي السبيل التي ستحكم آليات العمل في تعاملنا مع العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية.إذ تعتبر هذه القاعدة أساسا لكثير من الأحكام الفردية والاجتماعية في الإسلام في مجال العلاقات بين المسلمين وغيرهم وهيمجال العلاقات بين المسلمين وغيرهم وهي تقنين لمضمون بعض الايات القرآنية واحاديث الرسول كقوله تعالى:{لله العزة ولرسوله وللمؤمنين}المنافقون /٨ وقوله تعالى :**{لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا}** النساء /١٤١، و قول النبي صلى الله عليه وله وسلم ((الإسلام يعلو ولا يعلى عليه))[٤٣] وقوله [٤٤]عن الله

عز وجل ((من أذل لي ولياً فقد ارصد لي بالمحاربة)) وفي حديث اخر((قد نابذني من أذلّ عبدي المؤمن)).

وهذه القاعدة لاتعني اغلاق الباب لكل العلاقات مع الكافر بل مضمونها ان المحرم والممنوع على المسلمين ، أي سلوك او علاقة توجب ذلة المؤمنين وكونه تحت سلطة وهيمنة الكافر.ولذلك فان كبار الفقهاء التزموا بان هناك استثناءات لبعض المعاملات والعلاقات مع الكفار، والتي لاتوجب ذلك، فالعمل المأجور تحت يد الكافر بالرغم من جعله العامل تحت السلطة الادارية للكافر اذا كانت لاتوجب كون العامل ذليلا ومسلوب الإرادة والاستقلالية ليس حراماً وهذا ما صرح به بعض الفقهاء ((إن السبيل المنفي ما كان موجباً لمذلة المسلم ومهانة عليه لا مطلقاً، فإذا لم تكن الإجارة موجبة لذلك صحت بلا مانع))(٤٥).ومن ثم فان هذه القاعدة لها روح وملاك حاكم على كل علاقة مع غير المسلم وهو ((تسلط الكافر من جانب وذلّة المسلم من جانب آخر))(٤٦) ،ولذلك فان المعاملات مع الكافر اذا كانت تؤدي الى عزّة المسلم فتجوز مثل ما اذا كانت المعاملة سبباً لتحرير مسلم من سلطة الكافر المذلة وهي ما كانت في صدر الاسلام تتحقق في حال كون المسلم عبداً للكافر فانه في حالة اجراء معاملة معه تؤدي الى تحريره فتجوز كما في حالة اشتراط بائع العبد على الكافر عتق العبد بعد الشراء (٤٧) واستشهد بعض الفقهاء (٤٨) على ذلك بان امير المؤمنين – عليه السلام– قد استقرض من بعض اليهود شعيراً ورهنه بعض اموال فاطمة – عليها السلام – لديهِ وهذا جعل سلطة ما لليهودي على أمير المؤمنين – عليه السلام– طول مدة القرض فلو كانت مطلق التعامل مع الكافر حرام لما فعله أمير المؤمنين – عليه السلام–.

ومن خلال هذا التفصيل بين المعاملات وطبيعتها مع الكفار نستطيع ان نحدد الموقف من طبيعة العولمة وخاصةً في جانبها الاقتصادي ، فمثلاً لو كان الاستثمار الأجنبي يؤدي إلى تشغيل واستغلال الموارد العاطلة في البلد وبما يصب في الرفاه الاقتصادي ،فان هذا وان كان احد معالم العولمة الاقتصادية، فهو فضلاً عن جوازه قد يكون مما يشجع عليه الإسلام لان فيه العزة الاقتصادية للمسلمين، وكذلك لو كان البلد له ميزة نسبية في بعض الصناعات بحيث يؤدي الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية–ولو بعد مدة من الزمان – إلى تطور صادرات البلد.

إذن نحن أمام ثابتين إسلاميين تحكم علاقتنا بالعولمة كظاهرة كونية فرضت نفسها على جميع الدول والمجتمعات وهما موقف عزة المسلمين واستقلالهم عن القوى الخارجية المهيمنة وموقف ان تكون ممارستنا وتفاعلنا مع العولمة ضمن مسؤوليتنا كأمة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر ، وهذا يحتم علينا العديد من الخطوات التي تمكننا من الوقوف امام العولمة كاداة هيمنة

والاستفادة من العولمة كمظهر حضاري وصلت اليه البشرية في تاريخها الطويل من التطور وهذه الخطوات اكدها اكثر من باحث ويمكن تحديد اهمها:

١. ان من اول واجبات الامة الاسلامية الدينية والتاريخية ((العمل الجاد لاجل انسنة العولمة ، بجعل العولمة تقوم على رؤية انسانية للعالم وتلحظ سلامة الجنس البشري وكرامته في الوقت نفسه))[٤٩] وهذا ما يتم بتظافر جهود ((قوى الخير في العالم لكشف الخطر وانقاذ الإنسان ، هذه القوى متمثلة بالعلماء والادباء والفنانين والفلاسفة ورجال الاعمال ورجال الدين فهم قادرون على اضفاء وجه انساني على العولمة وانتزاع اسباب الشر فيها))[٥٠]

وهذه الخطوة هي تعبير عن الممارسة و((الرؤية الاسلامية التي تقوم على مبدأ – وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا – وعلى مبدأ – وتعاونوا على البر والتقوى))[٥١].

٢. إن العولمة إذا نظر إليها كتحدي معاصر للإسلام ، فيجب أن ينظر إليها((كتحدي للذات قبل أن تكون تحدي للعالم الآخر، وهو ما يستوجب علينا امتلاك ثقافة ذات طابع أصيل ننتجها بأنفسنا وليس ثقافة موروثة ، إنتاج ثقافة لها مصدران الإسلام والعصر وتحدياته))[٥٢] ،وهو ما يتم(بتجاوز النص لا بمعنى رفضه بل بمعنى التعمق بفهمه عمودياً وأفقيا بما سيكتشف المستقبل وبما يستجيب لضرورات الحاضر)[٥٣].

٣. فتح فضائيات خاصة تسعى لطرح قضايا الأمة العربية والإسلامية بأساليب جديدة واختيار نخبة من المختصين من أهل الدراية والمعرفة لإجراء بحوث تخصصية في حوار الحضارات من خلال خطاب إسلامي معاصر يعتمد المنهج العلمي في أطروحاته.

٤. إعادة الاعتبار، بكل قوة، إلى الأسرة وقيمه والى بُنى وقيم الاجتماع من خلال برامج تربوية وثقافية تنطلق من ثوابت الهوية والاستفادة من ثقافة العولمة في توجيه الجهود بين الأمم في محاربة عولمة الثقافة ، فيتم الاستفادة من البرامج التلفزيونية الشرقية التي تؤكد الهوية والمبادئ الإنسانية في مسيرة الإنسان والمجتمع ومحاربة تلك البرامج والمسلسلات الهوليودية التي تؤكد على نمط الحياة الاستهلاكية الغربية التي تجعل النجاح في الوصول إلى الترف والثراء وبكل الطرق المشروعة واللا مشروعة .

هذه بعض الخطوات التي يمكن اعتبارها ضرورة حالية في التفاعل مع واقع العولمة ، في محاولة لاستيعاب هذا الواقع من جهة والتصدي لأثاره السلبية من جهة أخرى ، لان الخطوات اللازمة لا يمكن حصرها باعتبارها خطوات تمثل نتيجة للفعل والفعل المقابل ولكن الذي يمكن أن يؤطر آلية العمل بالإضافة الى الثابتين الإسلاميين المتقدمين والتمييز التحليلي بين ماهية العولمة ووجودها هو التمييز بين الآخر الحضاري والآخر الاستعماري في صورته المحدثة والمضللة ،

ومن خلال هذا نكون قد مارسنا الواقع المعاصر بحداثته ووقفنا إمام القوى التي تحاول أن تجعلنا أدوات مهمشة وتصادر هذا الواقع وتجعله ملكاً لها ولمصالحها.

الهوامش

[١]- ظ :عبد الرحمن ،طه: حوارات من اجل المستقبل :١٥٣-١٥٤

[٢]- المقدادي ، فؤاد كاظم : العولمة ومقولة المصير المحتوم :٦

[٣]- ظ :المقدادي ، فؤاد كاظم : العولمة جولة استكبارية جديدة :٧

[٤]- حنفي ،د.حسن : العولمة بين المناهضة والترحيب ،جريدة الزمان ،عدد ١٢٣١ في ٢٠٠٢/١٠/٧

[٥]- اوانج ، عبد الهادي: أهمية الموقف الإسلامي اتجاه العولمة ضمن عالمية الإسلام والعولمة (مجموعة مقالات)المؤتمر الدولي السادس عشر للوحدة الإسلامية ،أعداد طه مرقاني، طهران ،١٤٢٤-٢٠٠٣،ص١١٦

[٦]- ظ : البعاج ،د.هشام :سيناريو ابستمولوجي حول العولمة ، مجلة المستقبل العربي ، ع٢٤٧ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ايلول ١٩٩٩:٣٩

[٧]- ظ :غارودي،روجيه : العولمة المزعومة :١٧

[٨]- هاني : ادريس : المفارقة والمعانقة ،رؤية نقدية في مسارات العولمة :٦٣

[٩]- ظ : لالاند ، اندريه : موسوعة لالاند الفلسفية :١٥٠٣-١٥٠٥.

[١٠]- ظ :الخطيب ، د.حسام : العالمية من منظور مقارن ، مجلة عالم الفكر ،ع١،مج٣٤، المجلس الوطني للثقافة والعلوم ،الكويت ، ٢٠٠٥ ،ص٨.

[١١]- ظ : لالاند:١٥٠٤.

[١٢]- ظ : الخطيب ،م.س ،ص٨ ومعجم اكسفورد ، م.س ،ص٥٤٦.

[١٣]- ظ : مجموعة باحثين : العرب وتحديات النظام العالمي:٤٤.

[١٤]- المسافر ،محمد صالح : العرب والغرب والعولمة :٢٥.

[١٥]- ابو زعرور ، محمد سعيد : العولمة ، ط١ ،دار البيارق ، عمان ، ١٩٩٨ ،ص١٤.

[١٦]- المحنة ، فلاح كاظم : العرب والعولمة ، مجلة دراسات ، ع٤ ، دار الجماهير ، ديسمبر ١٩٩٩، ص٣٨.

[١٧]- بحر العلوم ،حسن :العولمه بين التصورات الاسلاميه والغربيه :٤٧.

[١٨]- المسافر ،د.محمود خالد : العولمة الاقتصادية هيمنة الشمال وتداعيات الجنوب :٣٩.

[١٩]- م ن.

[٢٠]- البعاج ، د.هشام : سيناريو ابتسمولوجي :٣٨.

[٢١]- ظ :عبد الرحمن ،د.طه :روح الحداثة ،ط٨٨:١-٨٩.

[٢٢]- حرب ،د.علي :حديث النهايات ،فتوحات العولمة ومأزق الهوية:٢٩.

[٢٣]- حرب ، د.علي ، حديث النهايات :٤٤.

[٢٤]- مجموعة باحثين : العرب والعولمة :٤٦٧.

٢٥- ظ : الصبيح ،د.عبد الحميد ،د.نزار البلداوي :العولمة وتاثيرها على المعايير المحاسبية الدولية ،ضمن كتاب العولمة وابعادها الاقتصادية :٣٥١-١٥٣.

[٢٦]- ظ :سنكلتز ، جوزيف : العولمة ومساؤها ، ط١ ، :٢٢-٣٢ .

[٢٧]- العولمة و مساوءها:٣٧.

[٢٨]- حرب ، حديث النهايات :١٩.

[٢٩]- عمر ، احمد مصطفى : اعلام العولمة وتاثيرها على المستهلك ضمن كتاب العولمة وتداعياتها على الوطن العربي :١٧٦ .

[٣٠]- العولمة ومسا وءها :٣٧.

[٣١]- الاصغر ، محمد علي : مظاهر الغزو الثقافي ، مجلة البحوث الاعلامية ، ع ٢ ، مركز البحوث الاعلامية ، ربيع ١٩٩٢ ،ص٣٤

[٣٢]- الجابري ، محمد عابد : اشكاليات الفكر العربي المعاصر :٧٦.

[٣٣]- الوالي ، عبد الجليل كاظم : جدلية العولمة بين الاختيار والرفض :١٨.

[٣٤]- ليكلرك ، جيرالد : العولمة الثقافية ، الثقافة على المحك :٤٦٥-٤٦٦.

[٣٥]- حنفي ، د.حسن : ماذا يعني علم الاستغراب :٥٩.

[٣٦]- ثابت ، احمد : العولمة والخيارات المستقبلية :٢٤٨.

[٣٧]- الجابري ، د. علي حسين : العرب ومنطق الازاحات :٢٣٥.

[٣٨]- حرب ، د. علي : اسئلة الحقيقة ورهانات الفكر :١٧٦.

[٣٩]- عتريسي ، د. طلال : المسلمون وعولمة الثقافة بين الوهم والحقيقة ، مجلة المنهاج ، عدد ٨ ، سنة ٢ ، مركز الغدير للدراسات الاسلامية ، بيروت ، ١٤١٨ ، ١٩٩٧ ، ص٢٦٧-٢٦٨؛ظ :.
الجابري ، محمد عابد ، العولمة وتداعياتها على الوطن العربي :٣٠٥.

[٤٠]- شمس الدين ، محمد مهدي : موقف الاسلام من العولمة : مجلة قضايا اسلامية معاصرة ، ع٣ ،سنة ١٤١٩-١٩٩٨ ، ص٧٥-٧٦.

[٤١]- الامين ، محمد حسن : مجلة المنهاج (ندوة)،عدد٨ ،سنة٢:٢٥٥.

[٤٢]- ستكلز ، العولمه ومساؤها :٢٠.

[٤٣]- الصدوق ، محمد بن علي : من لايحضره الفقيه :٢٣١.

[٤٤]- العاملي ، محمد حسن : وسائل الشيعة :٥٩١-٥٩٢.

[٤٥]- الحكيم ، محسن : نهج الفقاهة :٥٢٠.

[٤٦]- المصطفوي ، محمد كاظم : القواعد :٢٩٤.

[٤٧]- ظ : البجنوردي ، محمد حسن : القواعد الفقهية :٢٠٣-.٢٠٤

[٤٨]- ظ : الخوئي ، ابو القاسم ، مصباح الفقاهة :٣٤٩.

[٤٩]- شمس الدين ، محمد مهدي:موقف الاسلام من العولمه :.٧٧

[٥٠]- الجابري ، د.علي حسين : العرب ومنطق الازاحات :١٣١.

[٥١]- شمس الدين ،محمد مهدي: موقف الاسلام من العولمه:٧٧.

[٥٢]- الامين ، حسن :مجله المنهاج (ندوة) .

[٥٣]- شمس الدين ، موقف الاسلام من العولمه :..٧٧

المراجع

القران الكريم

١. الأصغر ، محمد علي : مظاهر الغزو الثقافي ، مجلة البحوث الإعلامية ، ع ٢ ، مركز البحوث الإعلامية ، ربيع ١٩٩٢ .

٢. أوانج ، عبد الهادي: أهمية الموقف الإسلامي اتجاه العولمة ضمن عالمية الإسلام والعولمة (مجموعة مقالات)المؤتمر الدولي السادس عشر للوحدة الإسلامية ،إعداد طه مرقاني، طهران ،١٤٢٤-٢٠٠٣.

٣. البجنوردي . حسن : القواعد الفقهية ، ط١ ، دار الهادي ، قم ، ١٤١٩.

٤. ــ منتهى الأصول، ط١، مؤسسة العروج ، قم ، ١٤٢١ هـ.

٥. بحر العلوم،حسن: العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية ، ط٢ ، معهد الدراسات العربية الإسلامية ، لندن ، ١٤٢٤.

٦. البعاج ،د.هشام :سيناريو ابستمولوجي حول العولمة ، مجلة المستقبل العربي ، ع٢٤٧ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، أيلول ١٩٩٩.

٧. ثابت ، أحمد : العولمة والخيارات المستقبلية ضمن كتاب العولمة وتداعياتها.

٨. الجابري،د.علي حسين :العرب ومنطق الإزاحات ، دراسة في حقيقة العولمة ومصيرها ،ط ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ،١٤٢٦-٢٠٠٥ .

٩. الجابري،محمد عابد: إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، ط٤ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

١٠. حرب ،د.علي : حديث النهايات ،فتوحات العولمة ومأزق الهوية ،ط١ ، المركز الثقافي العربي ،دار البيضاء ،٢٠٠٠ .

١١. الحكيم ، محسن : نهج الفقاهة ، تحقيق جواد القيومي ، ط١ ، دار الفقه ، قم ،١٤٢١ .

١٢. حنفي ،د.حسن : ماذا يعني علم الاستغراب ، ط ١ ، كتاب قضايا إسلامية معاصرة،كتاب ،٢٤، قم ، ١٤٢١ – ٢٠٠٠ .

وهناك مراجع أخرى ذكرت في أثناء البحث .